المشرق

زينب (الزبّاء) ملكة تدمر

للاب سبستيان رنزفال اليسوعي

(وهي نبذة تاريخية اقترحها علينا حضرة الاب انستاس الكرملي البغدادي)

١

قد وردت في مجلّة الرسائل الكاثوليكية (سنة ١٨٩٤ في ٧ ايلول) طرفة مستلحة للاب جوليان اليسوعي في بعض اخربة جبل لبنان. افتتحها المؤلف الشهير بقوله ان اهل سورية يطلقون اسم جسر زينب على القناة الرومانية التي بقي منها الى اليوم بقايا ضخمة في وادي نهر بيروت. ثم قال «ومن غرائب عادات السوريين انهم اذا فاتهم اصل اثر قديم من المآثر العاديّة نسبوه الى زينب. اما اذا كان الاثر من الابنية الدينية كالكنائس وغيرها فعزوه الى القديسة هَيلانة امّ الملك قسطنطين الكبير» والحق يقال ان هاتين الملكتين قد احرزتا لهما صيتاً في بلاد المشرق لاسيّما سلطانة تدمر التي نحن بصدد ترجمتها. فذكرها طائر في الآفاق. غير ان اخبارها المتداولة بين العامّة ليست الّا اقاصيص من حديث خرافة لا تكاد تطابق ما ينبئنا عليها التاريخ الصحيح

وقد اعتنى بجمع تلك الحكايات كوسين دي پرسڤال في كتاب تاريخ عرب الجاهلية[١] فذكر فيه كل ما اورده مؤرخو العرب في شأن ملكة تدمر واختلقوهُ في سيرتها من ضروب الخرافات وانواع التزهات. وخلاصة قولهم انهُ كان في ايّام جذيمة الابرش بن مالك اللخمي (واصلهُ من الازد وهو اول من استجمع لهُ الملك بارض العراق من بني نصر) رجل يقال

(١ Caussin de Perceval : *Hist. des Arabes avant l'Islamisme*, II, p. 24 et 190.

لهُ عمرو بن ظرب (ويروى : طرب) وهو من نسل أذينة بن سديع من عاملة العماليق . وكان ملكاً على الجزيرة واعمال الفرات ومشارف الشام . وجرى بينهُ وبين جذيمة حروب فانتصر جذيمة عليهِ وقتلهُ وشتَّت شمل قومه وانتقلوا . لكنهم لم يلبثوا ان يحشدوا جموعهم ويمسكوا عليهم الزبَّاء ابنة عمرو . والزباء على ما يروى لقب تلقَّبت بهِ لطول شعرها (١ . اما اسمها فقد اختلف في اصلهِ كتبة العرب . فمنهم من قال انهـا سميت فارعة (او فارغة) ومنهم من ادَّعى ان اسمهـا نيلة او نائلة او نائلى (٢ . وذهب بعضهم الى انها تدعى ليلى . وقال آخرون بل كان اسمها ميسون . واذا استثبتَ الاباء على اصلها ومسقط رأسها قال البعض انها كانت من بلاد الرومان لكنها تعرف العربية . واخبر الميداني في مجمع الامثال انها ولدت في ياجرمي . وزعم التزويني وابن قُتيبة انها ابنة ملك العراق وانها تزوجت الملك الذي قتلهُ جذيمة . اما الرأي الاعمّ فهو ان الزباء كانت من نسل اذينة وابوها عمرو كما قيل

وعلى كل حال فقد اجمعوا القول انهُ لم يُرَ في نساء عصرها اجمل منها ولا اقوى حزماً ولا اكمل عقلاً . قال ابن نباتة انها اعتزلت الرجال فكانت عذراء بتول (٣ وكانت تحبّ الوقائع والحروب وتقود الجيوش كالقـائد الشجاع . فلما اجتمع لها امرها واستقرّ لها الملك بذلت كنوزها فجمعت الجموع وقد عزمت على الاخذ بثأر ابيها . الَّا انها خافت ان ينتصر عليها الاعداء . فلجأت الى الحيلة ونصبت لجذيمة المكايد الى ان دعتهُ الى قصرها . وكان بين اصحاب جذيمة رجل يقال لهُ قصير بن سعد من بني لخم فشاورهُ في الامر فحذَّرهُ قصير وردَّه عنها . فلم يذعن جذيمة لنصيحتهِ واتى الزباء فقبضت عليهِ وامرت برواحشهِ فقُطعت فهلك

وكانت الزباء قد بنت على الفرات حصنين متقابلين وجعلت بينهما بقناة تمرّ تحت النهر

---

١) قال ابن الكلبيّ : كان لها شعر اذا مشت سحبتهُ وراءها واذا نشرتهُ جللها فسميت الزَّباء والازبّ الكثير الشعر (عن ابن نباتة طبعة بولاق ص ٤٣)

٢) يعلم اصحاب التواريخ القديمة ان هذا الاسم كان اسماً لاحدى الالاهات التي يعبدها عرب الجاهلية في الكعبة . (راجع Lenormant: *Lettres assyriologiques*, Tome II, 1872.

٣) الزباء هي الملكة التي يضرب بها المثل في العزّ فيقال اعزّ من الزباء . . . . . واسمها ليلى تملكت بعد ابيها لصدم الولد واحسنت السياسة . . . . . وكانت تبغض الرجال . . . . . (راجع شروح مقامات الحريري للرازي وغيره)

ويزعم العرب انها جعلت اختًا لها يدعونها زينب في احد منفذي القناة واتخذت لنفسها المنفذ الآخر. وكانت تسكن في حصنها اكثر زمنها. فاذا جاء الصيف رحلت الى تدمر

وكان عمرو بن عدي خاف جذيمة خاله وقد حسم على قتل الزباء. غير انهُ خاف من سطوتها فاستدعى قصيرًا وقال لهُ: « كيف لي بها وهي امنع من عُقاب الجوّ » (فذهب قولهُ مثلًا). قال قصير: أعِيَتْ وخَلاك ذمّ (فصار مثلًا). ثم جدع انفهُ وأذنيه (١ وضرب ظهره فقدم الزباء وشكتها على حاله فقال: ان عمرو بن عدي فعل بي ما ترين. فشفقت عليهِ وأنست بهِ حتى اطامتهُ على سرّها واظهرت لهُ القناة والمنفذين. فلما عرف ذلك رجع سرًّا الى عمرو فاعلمهُ الامر وحرّضهُ على البطش بالزباء. فركب عمرو في الفي دارع على الف بعير في الجوالق حتى اذا صاروا الى الزباء تقدّم قصير يسوق الابل ودخل على الملكة وقد كانت امنتهُ ولم تتّهمهُ. فادخلت العير في قصرها. فاذا بالرجال خرجوا من الغرائر فثاروا باهل المدينة واعملوا فيهم السيف. فهربت الزباء ودخلت القناة. فلما وصلت الى المنفذ الثاني استقبلها عمرو بسيفه فقالت: بيدي لا بيد ابن عدي (فأرسلتهُ مثلًا). ومصّت خاتمها وابتلعت سمًّا كان فيهِ فوقعت على الارض ساهمةً فضربها عمرو وقتلها

تلك هي ايها القارئ اللبيب قصّة الزباء واختها زينب اختصرتها على غاية الامكان (٢ من تأليف العرب ولكن اين هذه الروايات من الاخبار التاريخية الصحيحة التي تخبرنا بشهرة ملكة تدمر وعظمة تدبيرها وفتوحاتها وحروبها مع الملوك الرومانيين وكسرتها الاخيرة ونفيها من صحاري وطنها الى رومة ومقامها في مصيف بتيبور وموتها فيهِ الى غير ذلك من تفاصيل حياتها واكثرها اليوم راهن مستفيض

ولقد كنا نظن ان كرور الايام لم يكن ليزيد شيئًا في تلك القصص الملفقة. الّا اننا وقفنا يومًا في هذه المجلة (عدد ٢ ص ٨٣) على قصة اخرى. وهي ان السوريين لم يكتفوا بنسبتهم الى زينب القناة القديمة المذكورة آنفًا بل اضافوا الى ذلك حكاية اخرى فقال قوم

---

١) ومن ذلك المثل: لامرٍ ما جدع قصيرٌ انفه

٢) ومن رغب في مطالعة تفصيل هذه الرواية عليهِ بكتاب الاغاني (راجع كتاب ونّاءات الثالث والثاني في روايات الاغاني للاب صالحاني الجزء ٢ ص ٥٤). وقد استخرج العرب من قصّة الزباء عدة امثال لم نذكر الّا البعض منها خوف الاطالة

منهم ان زُبيدة زوجة هرون الرشيد هي التي شيَّدتها لاستجلاب مياه نهر بيروت العذبة فاستغربتُ الامر استغرابًا كليًا وفكَّرتُ في نفسي: «اجل ان اهالي سورية يعرفون اخبار ذلك الخليفة المشهور وزوجته المحبوبة لورود ذكرهما مرارًا في كتاب الف ليلة وليلة. على ان نسبة القناة الى زبيدة امر غريب للغاية لان هذا البناء مع استحكام صُنعه كان قد مسَّتهُ يد الدهر على عهد الرشيد فثلَّ قسم كبير منهُ ولم يعُد يجدي نفعًا لاستجلاب المياه . . . ولعلَّ تلك القصَّة من القصص التي ابتكرها الاهالون لقوَّة الخيال عندهم . . .»

فلم ازد التفتيش عن الامر الَّا زاد استغرابي لهُ وبُعدي عن معرفة علَّته. الى ان اطلعني مدير الجلَّة على رسالة لحضرة الاب انستاس ماري دي سنت ايلي الكرملي قد سألهُ فيها عن شأن الزباء. وابدى لهُ الرجاء ان يبين لقرَّائه الكرام الغث من السمين في ترجمة تلك الملكة الشهيرة. فعرض عليَّ حضرة المدير ان اكلِّف نفسي بالجواب. فلبَّيتُ الى دعوته وقد اخذتني الرغبة الشديدة في الوقوف على العلاقة التي بين القصتين المرما اليهما وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه ان شاء الله

٢

قد قدَّمنا ان صيت سلطانة تدمر ممتدّ الى الخافقين(١ قال الماركيز دي ڤوكويه (de Vogüé) «لقد فتن ذكر تدمر في كل آونة قلوب الناس.» فكانَ ارضها مورد تسابق اليهِ اصحاب الفنون والمؤرخون والمهندسون والسيَّاح والعلماء. ومن كُلف بالمكركات والآثار القديمة. ولكلٍّ منهم بحث خاصّ يُحيي بهِ ذكر ما اكتسبت تلك المدينة من المجد والقوة في وقتٍ يسير ويُشعر بهبوطها عن منزلتها الفائقة وذلك ما جعلها عبرةً لامم العالم. ولكن مع كل ما بذل علماء القرون السالفة من السعي والجهد في ايضاح تاريخ تدمر وتصحيحه فانهم لم يظفروا من المرغوب الَّا بالقليل النزر. امَّا عصرنا هذا فقد ظهر فيهِ منذ خمسين سنة عدَّة مستشرقين واصحاب عاديات يتقدمهم العلامتان دي ڤوكويه

١) يعلم قرَّاؤنا الكرام ان تاريخ زينب قد اختاره الادباء ليُونَ لا سيما الفرنسيُّون موضوعًا للتمثيل والروايات المختلفة. غير ان ذكر هذه التصانيف يخرج عن بال الادباء اللهمَّ الَّا ذكر رواية قدمها الاب دوبينياك (abbé d'Aubignac) الى الشاعر كورنيل العظيم. ولا يجهل ايضًا القراء ان لابرويار (La Bruyère) الكاتب الشهير قد خصَّص لوصف زينب وعجدها وافتخارها مقالة حسنة يعتبرها ذوو الذوق السليم من ابلغ مقالات عصره

ووادنكتون (Waddington) . وهما الآن افتحا الدروس التدمرية واتحفا العالم بما اكتشفا من الآثار العديدة في حاضرة مملكة زينب وقرأا من الخطوط المحفورة على مقابرها واعمدة هياكلها وقواعد دُماها . ثم تبعهما الاساتذة مورتمان (Mordtmann) ودسو (Dessau) واوتنك (Euting) ولينورمان (Lenormant) وساخو (Sachau) ردي سوسي (de Saulcy) وكرمون غانو (Clermont. Ganneau) وشرودر (Schröder) وغيرهم ممن يطول بنا ايراد اسمائهم . فلم تمرّ سنة الا اتسع نطاق تاريخ تدمر فازداد بياناً ويقيناً باكتشافات جديدة

ولعلّ سائلاً يقول : فماذا تنبئنا التواريخ والرسوم القديمة من امر زينب وما هو نسبها وما هي الانحاء التي توات تلك الملكة تدبيرها والبلاد التي باشرت فتحها . ولاي سبب كُسفت تلك الشمس البهية فحجب نورَها الساطع بعضُ مارك رومة المظفرين

أجيب ان ترجمة زينب على ما مرّ لا يمكن اقتباسها من اخبار العرب وحدهم . وهنا يحسن بنا ذكر ما قالهُ ابن خلدون في مقدمته : « ان الذين ذهبوا بفضل الشهرة والامامة المعتبرة في التاريخ هم قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الانامل . » فهذا القول اصحّ في تاريخ زينب منهُ في بقية الاخبار . وهذا ابن خلدون الذي نطق بذلك المقال قد ذلّل في شأن الزّباء كل ما سبق اليهِ مؤرخو العرب كما رواهُ ايضاً قبلهُ الطبريّ وهو من جملة المبرزين المعدودين في الانامل الخمس (١)

فان كان المؤرخون الشرقيون لا يُرجع الى قولهم في اخبار زينب فاي منهل يا تُرى يجب ان نرده . اقول : اولاً ان الكتبة الذين يجب الاستناد اليهم هم المؤلفون القدماء من الرومان واليونان . نخص منهم بالذكر ڤوپيسكوس (Vopiscus) وتريبليوس پوليو (Trebellius Pollio)

ولهما تاريخ في القياصرة . ثم زوزيموس (Zozime) الكاتب اليوناني الذي وضع كتاباً بحكم الاجزاء اودعهُ تفاصيل اخبار زينب . وقد جاءت الاكتشافات الحديثة مؤيدةً لمعظم ما اثبتهُ في صددها . ثم المؤرخ زوناراس (Zonaras) وغيرهم ممن سنأتي

---

(١) راجع Nöldeke : *Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sassa-niden.*, 1879, p. XVII. وقد لاحظ المؤلف مثل هذا المعنى في كتابه *Über die Amalekiter*, p. 34.

بذكرهم في معرض كلامنا . وعلى هؤلاء المؤرخين قد اعتمد كلُّ من كتب قبل زماننا عن ملكة تدمر (١

ثانياً ومن المصادر الثابتة التي تؤثر على ما سواها من هذا القبيل الكتابات المكتشفة منذ خمسين سنة كما تقدَّم (٢ . وكان اول من سبق الى نسخها العلاَّمة دي ڤوكويه في مجموع الكتابات السامية (٣

هذا وانَّ التصانيف التي أتت بوصف تدمر واحوالها وذكر أمرائها لا يحيط بها احصاء . ولا يكاد يخلو كاتب مسنٌّ بحثوا عن تاريخ القياصرة والرومان الَّا وتعرَّض للكلام عن زينب وعاصمتها فمنهم من اسهب ومنهم من اقتصر وربَّما ذكروا امرًا خاصًّا من امور المدينة كبناياتها وتجارتها : بيد انَّ الكتب الجامعة المشتملة على تفاصيل اخبار البلدة مفردةً قليلةٌ جدًّا . ومنها ما لم نتمكَّن من الحصول عليهِ فناتنا لذلك فوائدهُ (٤

ولا بأس من ذلك فانَّ الاب مرتين اليسوعي الطيِّب الذكر قد اغنانا عن مطالعة كثير من التآليف بما اودعهُ لنا من اخبار زينب في تاريخ لبنان الذي عُرِّب منهُ قسمٌ ملخَّصاً بقلم المعلِّم رشيد افندي الشرتوني . فانَّ المؤلف رحمهُ الله كتب في ملكة تدمر نبذة حسنة دوَّن فيها ما امكنهُ من الفوائد المستخلصة من الكتابات التدمريَّة . ومن ثمَّ فلم يبق لنا الَّا ان نقتفي آثارهُ ونتمِّم ما اتى بهِ من التفاصيل الخطيرة مع إضافة بعض تعليقات وافادات عن جُلِّ ما اكتُشف منذ وفاتهِ الى يومنا هذا (٥ . ولم نألُ جهدًا كي تكون هذه المقالة

---

١) ومن جملتهم جمعيَّة من علماء الانكليز الذين وضعوا تاريخًا عامًّا حسنًا يشتمل على عدَّة مجلدات ضخمة طُبع سنة ١٧٤٠

٢) راجع ما قالهُ في خطارة هذه الكتابات الدَّلابة نولديك في المجلَّة الشرقية الالمانية (Z. D. M. G. 1885, p. 338)

٣) عنوان الكتاب Syrie Centrale, Inscriptions Sémitiques, 1868 اشرتُ اليهِ بأوَّل حرف اسم مؤلفهِ (V) وكذلك ساشير بحرف (W) الى تأليف السيِّد وادنكتون في الكتابات اليونانيَّة واللاتينيَّة في بلاد الشام (Inscriptions grecques et latines de la Syrie, 1870) واما المجلَّة الاسيويَّة الفرنسويَّة Journal Asiatique, فالدلالة عليها بحرفي J. A.

٤) وكنَّا نودّ لو اطلعنا على تأليفين حسنين في هذه المادة استشهد بهما الكتَّاب احدهما بالالمانيَّة Sallet : *Die Palmyrenische Fürsten*, 1866 والآخر بالفرنسيَّة L. Double : *Les Césars de Palmyre* 1877

٥) ونشكر الابوين هنري لامنس ولويس شيخو لعدَّة إفادات تكرَّما علينا بها لتحسين شغلنا

مطابقة لأصول التاريخ الصحيح ولذلك اشرنا في ذيل الصفحات الى التآليف التي اخذنا عنها في اثناء كلامنا

ومع ما في هذه النبذة من القصور فأملنا وطيد انها ستكون كافية لان تُطلع قرّاءنا على اهمّ اخبار تلك الملكة التي اذعنت مدّةً بلادُنا لسلطانها فزُرتَ محُسن تدبيرها خيرات عميمة

وما لا يسعنا السكوت عنهُ في هذا المقام هو رغبتنا الشديدة في ان يُقبل ادباء الشرق على تلك الدروس التاريخية التي سبقهم اليها علماء الفرنج فصرفوا بسخاء في زيارتها ما لديهم من الوسائل الادبية والماديّة فيجري وطنيُّونا على مثالهم لئلاّ يقال ان الغريب ادرى بما في البيت من اهلهِ(١

٣

ان اسم صاحبة ترجمتنا في اللغة الآرامية בתזבינה (بَتْ زبينه) معناه فيها ابنة التاجر وعلى هذه الصورة ورد في الكتابات التدمريّة . وقد اضافت اليهِ اسماً آخر رومانياً جرياً على عادة الشرقيين الذين كانوا في عصرها تحت حكم الدولة الرومانية فتسمّت بسپتيميا (Septimia) واكثر دلالة مثل هذه الالقاب على عائلة المتكنّي بها (٢ . اما اسم زينب (Zénobie) فهو على ما ارتأى وادِنكتون(٣ صورة اسم يوناني قد اعتاد الشرقيون في تدمر وانحاء سوريّة ان يزيدوهُ على اسمائهم الساميّة ولعلّهُ يوجد في اسمها إلمام باسم ابيها زينوبيوس(Zénobius)(٤ . وكان هذا من اعيان تدمر متقلّداً فيها رُتبة قائد جيش سنة ٢٢٩ فمسيح لمّا اجتاز في تدمر الملك اسكندر ساويروس عند سيرهِ الى محاربة الفرس . ثمّ رُقّي بعدئذٍ الى مقام الأغوراتوم (ἀγορανόμος) اي مُناظر التجارة

(يأتي البقيّة)

---

١) راجع المشرق ص ٣٠ . راجع ايضاً (في العدد ٦) مقالة مفيدة للاب لامنس عنوانها « هيا على درس تاريخنا » اودعها صاحبها نصائح جديرة بالاعتبار نودّ ان تخرج الى حيّز العمل

٢) والرومان يدعون هذا الاسم الزائد gentilicium

٣) W. Nos 2598 et 2611

٤) ومما يؤيد صحّة هذا الرأي انّ اسم زينوبيوس كثر وروده في التواريخ الشرقيّة الدينيّة والدنيويّة معاً فتراهُ تارةً على صورة « زينوس » واخرى على صورة اصغر (زينا) وقد تسمّى بها بعض بطاركة واعيان الكنيسة الانطاكيّة (راجع لوكيان المشرق المسيحي الجزء الثاني ص ٧٠٤ والمكتبة الشرقيّة للسمعاني الجزء الاوّل ص ١٥)